نص تطبيقي رقم 2

معركة القديم والحديث في الأدب العباسي

بالرغم من التحولات السياسية والاجتماعية والفكرية التي حدثت بعد قيام دولة العباسيين ، لم يحدث تطور في الأدب يتناسب مع هذه التحولات ، إلا بعد انقضاء وقت طويل وبعد رسوخ التغيرات الجديدة في كيان الدولة وفي النظام الاجتماعي ،وبعد أن أصبحت التحولات الفكرية جزءا كيانيا من المجتمع العباسي.

ولكن ليس معنى ذلك أن الادب ظلّ واقفا لا يتحرك ولا يتجدد مع أحوال مجتمعه . فماذا نعني اذن حين نقول إنّ الأدب لم يتطور مع الانقلابات السياسية والاجتماعية التي حدثت للمجتمع العربي بعد قيام الدولة العباسية ؟

نعني أولا أن هذا التطور لم يحدث مباشرة بصورة ميكانيكية عفوية بمجرّد حدوث تلك الانقلابات بل حدث على مراحل متطاولة متشابكة لا تظهر بينها الحدود والفواصل الحاسمة، أي أن القديم والجديد بقيا زمنا يتعايشان في المجتمع العباسي ولكن على اختلاف في مستوى كل منهما بالنسبة للأخر باختلاف المراحل.
ونعني ثانيا أن التطور الأدبي الكامل ما كان يمكن أن يحدث إلا بعد صراع طويل بين القديم والجديد تبدو فيه الغلبة للقديم ، في البداءة و ثمّ يتعادلان، ثم تظهر الغلبة للجديد بعد أن يكون قد نما واشتدّ ساعده واكتملت رجولته.

من مظاهر هذا الصراع مثلا أن نرى فريقا من شعراء ذلك العصر لا يزال يجري على التقاليد الكلاسيكية لبناء القصيدة كما كانت في الجاهلية وصدر الاسلام والعصر الأموي من ضرورة الاستهلال بذكرى الرحيل ووصف الاطلال والإبل ومشاهدة الصحراء و أجوائها، ثمّ التخلص الى الموضوع المقصود فجأة مهما كان الموضوع مدحا أو فخرا أو رثاء ، بل لو كان غزلا نسبيا ، وأن نرى الفريق يحرص على أن تكون لغة القصيدة ذاتها من لغة أهل البادية ، ومن غريب هذه اللغة بالأخصّ وبصياغتها العفوية وبأوزانها الطويلة الرنانة وتراكيبها المجلجلة وموسيقاها الخارجية ، كما تجلجل الأجراس بأعناق الابل في جوف الصحراء القفر الموحشة الساكنة.

وفي الوقت نفسه وفي محيط بغداد أو البصرة أو الكوفة ،نرى فريقا من الشعراء يحاول التمرّد على هذه التقاليد ،ولكنها محاولة ثائرة حينا وحذرة متحفظة وَجِلة أحيانا ،وهذا الفريق الذي يحاول التمرد إنما يمثل روح الجديد الذي يتحرر ويهتز مع حركة التطور العامة. وهو يريد أن يعبّر عن طبيعة هذه الحضارة الجديدة ،بأسلوبها الناعم وترفها وبأشياء الحياة اليومية المستجدة فيها، وبأفكارها ومعانيها ومشاهدها العمرانية والطبيعية من قصور وحدائق وملاه وغلمان وقيان وغناء ورقص وخمر.
هذه المعركة ذاتها وجدت ميدانا رحبا أيضا في قضية الأوزان الشعرية، فإنه حين شاع الغناء في مدن العراق وفي بغداد بالأخص ، وأصبح حاجة يومية من حاجات أهل القصور ، وتهيأت له العناصر البشرية من الجواري والقيان ، والعناصر الأدبية . هنا كان لا بدّ من معركة بين الحفاظ على أوزان الشعر الغنائي القديم ، ومحاولة تحوير هذه الأوزان

بحيث تتلاءم مع حاجة الغناء الجديد الى قصر المسافة بين النبرة والنبرة ، والنغمة والنغمة و والفاصلة والفاصلة ،والوقفة والوقفة ، والى قصر السلّم الموسيقي نفسه بجملته ، أي أن هذه الملاءمة احتاجت الى الأوزان الشعرية القصيرة بينما كان الغناء القديم يعتمد الى الأوزان الطويلة .

ولكن يلاحظ أن المعركة في هذا الميدان لم تكن القوة فيها للقديم ، بل يبدو أن الجديد هنا كان على جانب من القوة استطاع به أن يفرض نفسه على القديم دون أن يعاديه ، وذلك بفضل توزيعه للأوزان بين أغراض الشعر ،فالطويلة للأغراض الكلاسيكية كالمدح والرثاء وأمثالهما ، والقصيرة لشعر الغناء . وهذه موجودة فعلا ضمن الأوزان الكلاسيكية نفسها ، ولم يستحدث العباسيون منها سوى اثنين , هما المقتضب و المضارع.

على أن معركة القديم والجديد هذه لم تستمر حدّتها إلا ريثما أخذ الجديد مكانه في الحياة العباسية واكتمل نموّه وتطوّره وذلك منذ القرن الرابع الهجري عهد أبي الطيب المتنبي وأبي العلاء والشريف الرضّي ، اذ نضجت الحركة العلمية واختمرت الحياة الاجتماعية والفكرية في عقول الأدباء ووجداناتهم حتى صارت الصلة بينهم وبين هذه الحياة صلة عقلية وجدانية كيانيّة ، وصار الابداع الأدبي يصدر عن هذه الصلة تلقائيا دون قصد وتعمّد وتكلّف ، وحينذاك استقرت الأساليب الأدبية شكلا ومضمونا على طابع وفق طابع العصر.